كيف صرنا آخر الركب

نادية اللمكيَّة

«فلا الأمس يمضي ولا الغد يأتي»هكذا عبّر محمود درويش «دون قصد» عن حالة التنازع المزرية بين التحفظات الأيديولوجية وبين القراءة الجديدة للنص الديني، بين الأنا التي تخاف على نفسها من الانفتاح فتتشبث بالأمس، وبين رغبتها في مسايرة التقدم والتعايش مع الآخر، وهي بين هذا وذاك تحاول اختزال العالم في ثقافة أساسها الدين، ليصبح الدين هو المسير للأهداف والعادات والسلوك اليومي، ويصبح الدفاع عن كل هذه الجوانب واجباً مقدساً.

ولكن هل كل عاداتنا وأفكارنا وأنشطتنا هي بتفاصيلها من صلب الدين (الوحي)؟ إنّ الإجابة على هذا السؤال يفتح الباب على أسئلة كبيرة أخرى: ما الثابت في هذا الدين؟ وما المتغير القابل لتجاوز وصاية التاريخ؟ محمد السمّاك الكاتب والباحث اللبناني يحاول فتح الحديث في مقاله «بين المتغيرات العالمية والثوابت الدينية».

يقف الكاتب في بداية المقال محاولًا إيجاد تفسير فلسفي لحالة التراجع الحضاري للمسلمين اليوم. فعلى المستوى التكويني يعدّ الدين المكون الأساسي لثقافة المسلم، ويغدو الدفاع عن الدين دفاعا عن الثقافة والهوية والمبادئ، ويصبح «رجل الدين» وصيًّا لا يمكن تجاوزه، وهذا كله يجعل المسلم في قلق من التداخل مع الآخر، خوفًا أن تتأثر ثقافته - المغلفة بالدين- بثقافة الآخرين، ليصير «الخوف على الذات» هاجسًا يمنعه من الانفتاح والتقدم.

تفسير الكاتب النفسي هذا للقضيّة يفتح الحديث حول العلاقة بين الدين والثقافة، فالتحام الثقافة بالدين - برأيي- هي ظاهرة صحيّة، إذ لا يمكن بأي حال فصل الدين عن الثقافة؛ فليس من الخطأ أن يكون الدين مسيرًا للحياة ومنظمًا ومرتبطًا بالأهداف، لأنّ الوحي هو إجابة الإله لأسئلة البشر، هو نظام الخالق لحياة المخلوق، لكن القضية تتعلق بالأجوبة التي يقدمها الدين؛ فالدين يجب ألا يقف محصنًا ضد أسئلة البشر الكبيرة، بل محتضنًا لها، ونصوصه قابلة للقراءات الجديدة المرتبطة بتغيّر الزمن، لأنه بغير ذلك سينتهي إلى العزلة والإقصاء.

كما أنّ من أبرز إشكاليات الفكر الإسلامي اليوم - بحسب الكاتب- هو عدم قدرة الدين على التفاعل مع الآخر بالرغم من كون الدين يدعو إلى قيمتين أساسيتين: الحوار الإيجابي، والانفتاح العلمي، وأدلة التاريخ في ذلك كثيرة؛ منها علاقة النبي محمد مع الآخر المختلف عقيدة أو ثقافة، ومنها عصر الازدهار الفكري الذي مرت به الدولة الإسلامية زمن الخلفاء العباسيين من نقل وترجمة، فالدين إذن يحمل جوهرًا يدعو إلى التعايش مع الآخر بإيجابية، كما يدعو إلى احترام ثقافته وفكره ومعتقده. فإن كان هذا هو جوهر الدين فما الذي يبرر هذه العمليات الإرهابية المتوالية باسم الدفاع عن الدين؟ وما الذي يفسر هذا الخطاب الديني المشبع بمعجم التكفير والإقصاء العلني أو الضمني؟ إننا وإن اتفقنا مع الكاتب في أن الإسلام هو دين التعايش والحوار لكن الإشكالية تتعلق بتأويل النص من جانب وبتناقل الرواية التي تحتاج إلى مقاربة متنها بالنص القرآني من جانب آخر، وهذا كله يخلق ذاكرة تعرقل الحوار.

على أنّ الآخر لم يكن هو الضحية في هذه القضية فقط، بل وصل المجتمع الإسلامي - كما يقول الكاتب- إلى مرحلة تؤمن فيها كل فرقة بأنها «المختارة» و«الناجية» وأنها الأحق بدخول «جنة الله»، وأنها تمتلك «الحقيقة المطلقة». هل يمكن إذن أن تكون الحقيقة نسبية في هذا الدين؟ يقول قوزدوروف: «يجب أن نتخلى عن الفكرة الخاطئة والمبسطة المبنية على معنى أنّ الدين يخلو تماماً من الحقيقة، ويجب أن نتخلى كذلك عن الفكرة الخاطئة الأخرى التي ترى أنّ الدين يملك الحقيقة المطلقة،

فليس ثمة دين يعتبر حقيقياً تماماً، وليس ثمة دين يعتبر خاطئاً تماماً كذلك. إنّ الموقف الديني وظيفة كونية من وظائف الوعي الإنساني». والقضية الأكبر برأيي ليست في جوهر الدين ذاته؛ لأننا إن استطعنا إيجاد الأجوبة الكاملة لجميع تساؤلات البشر في هذا الدين فإنه سيكون دينًا مثاليًا لا يقبل الشك، لكن جزءًا من هذا الدين معتمدٌ في الأساس على الاجتهاد والمراجعة فإن احتمالية الخطأ والصواب واردة دون شك، وبالطبع في ذلك حكمة إلهية. ما نريده إذن هو أن نفهم أن فهم الدين متغير "والتغير لازم من لوازم بشرية الفهم وليس لازمًا من لوازم الدين ذاته"، وأن نسبية الحق والباطل في هذا الفهم المتغير واقعة، وأنه مع سرعة التحولات العالمية اليوم علينا أن نقدّم فهمًا جديدًا يتلاءم ومعطيات العصر، وعليه أيضًا لا يمكن الجزم بامتلاك أي فرقة الحق المطلق (بالرغم من أن أحد ركائز الانتساب للمذهب –كما تعلمتها ذات يوم- هي أن تؤمن أنك على صواب وغيرك على خطأ!)، يقول تشارلز كمبول في كتابه (**When Religion Becomes Evil**) إن العلامة الأولى التي تشير إلى أنّ اختلالاً حدث في فقه الدين هي " إدعاء أتباعه امتلاك الحقيقة المطلقة".

ومن ثم فإنّ امتلاك فئة للحق يتنافى مع الدين رأسًا؛ لأن الإسلام بيّن القواعد الكلية غير القابلة للشك أو الجدل، وترك تفاصيلَ قابلة للاجتهاد، تتغير قراءتها بتغير الزمان، ومن حق المسلم أن يتساءل وينظر ويتدبر، لأن إعمال الفكر في التدبر والمراجعة مطلب ديني، فبغير التدبر والتساؤل لن يكون هناك فهم، وبغير الفهم لا يتحقق الإيمان الصادق، وأما العودة للعلماء فهو مطلب "اختياري" يرجع إليه المسلم فيما أشكل عليه بعد البحث والتدبر فالله تعالى يقول: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ).

الحل إذن كما يقول السماك يكمن في «الوعي بواقع التخلف والاعتراف ونقد الذات لا مهاجمة الآخر» وهذا الاعتراف يتطلب إيمانًا بالاختلاف، وإدراكًا لحتمية استمراره، وضرورته لبناء مجتمع إنساني متناغم، يقول الحق سبحانه: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ). كما يتطلب الاعتراف منح الآخر حريته في اختيار الدين تَمامًا كما منحها الإسلام له دون إكراه، كما أنه وكما يقول السماك إذا كان احترام الآخر لونًا وسلوكًا قاعدة أخلاقية، إذن حريٌّ أيضًا أن يكون الاختلاف في (العقيدة) قاعدة إيمانية وإقرارا بتعدد الشرائع.

ثم يحاول السمّاك في نهاية المقال إثبات قاعدة الاختلاف الموصلة للوحدة والتعايش، من خلال ثلاثة مبادئ أرساها الإسلام تقوم عليها الوحدة في التنوع:

- مبدأ التداول: (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاس)، فلو كان الناس شعبًا واحدًا لما كانت هناك حاجة للتداول، والتداول هو «تواصل الإنسانية واستمرارها» ولكن الإرادة الإلهية شاءت الاختلاف.

- مبدأ التدافع: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ) والتدافع هو التنافس الإيجابي، بغية الارتقاء والتطور، ولو لم يكن هناك اختلاف لما كان هناك تنافس، ولما كان هناك – بالضرورة- ارتقاء وتطور، فالاختلاف «أساس عدم فساد الأرض».

- مبدأ التغاير: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ)، وقوله تعالى: (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ) وهي قاعدة تشكل التكامل مع قاعدةً التعارف، وهذا التكامل هو ما يغرس الأخوة الإنسانية في هذا العالم المختلف جدًا.

بعد كل هذه العوامل التي نعترف بأنها أخرت ركب الحضارة الإسلامية لا يحق لنا الآن طرح السؤال ما الذي يجعل الإسلام في مجابهة العالم الذي يطلق عليه أحكامًا عامة ظالمة!

nkha008@gmail.com